الفصل السابع

عنفوان الإمبراطورية

الإصلاح الإداري

لقد قدَّم حكم تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧) قرناً من التوسعات العظمى في آشور الإمبراطورية، ولقد تبع ذلك التغير الدرامي في الأوضاع الدولية التنظيم الإداري الذي أعطى الملك السيطرة المباشرة والسريعة على جميع موارد الإمبراطورية.

وبالنسبة للتنظيمات الإدارية القديمة للمناطق، انتقلت بعض أنظمة الولاية التي كان يُنفذها بعض العائلات النبيلة إلى ما يشبه نظام الملكية الوراثي، وأصبح الوالي حاكماً شبه مستقل، ولكن هذه الأنظمة قد تحطمت وظهر بدلاً منها بُنية من الموظفين الذين كان يُعينهم الملك وأصبحوا مسؤولين أمامه في العاصمة، ولقد نظمت في الإمبراطورية أنظمة للمواصلات السريعة وشبكة من مراحل البريد التي اقتبسها الفرس فيما بعد وادعوا أنهم هم الذين اخترعوا هذا النظام الذي انتشر عبر الإمبراطورية.

وقد طُلب من موظفي الولايات إرسال تقارير بالنظام إلى العاصمة وبالسرعة المطلوبة، وكان للملك بعض المفتشين المتنقلين وذلك لفحص أعمال موظفي الولاية حتى أعلى المراتب وبالنسبة للدول الخاضعة لآشور والتي تقع فيما وراء الولايات المحكومة بشكل مباشر فقد عين تغلات بلاسر ممثلين عنه لضمان المصالح الآشورية في البلاط ولاسيما في الشؤون التجارية والسياسة الأجنبية.

أما العائلات الحاكمة المحلية، فما داموا يدفعون الجزية المفروضة عليهم، وما داموا يقبلون تعليمات الممثل الإمبراطوري بالنسبة للشؤون العامة، فقد تركوا أحراراً ومستقلين ولديهم الثقة بدعم القوى الإمبراطورية لهم ضد أي ثورة داخلية أو هجوم خارجي، وليس من الصعب أن نجد أمثلة على أوضاع من هذا النوع، إذ إن

obeikandl.com

لدينا نقشاً آرامياً يمثل أحد الأتباع المخلصين وهو ملك (سامال) التي تقع على بعد حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال من حلب، ويذكر هذا الملك كيف أعاد تغلات بلاسر والد هذا الملك إلى الحكم بعد ن حصل تمرد ضده، وكيف أن الملك الآشوري قد قضى على المعارضة، وفي التوراة نرى كيف أن (أحاز) ملك يهوذا وعندما هدده ائتلاف معادٍ، التجأ (أحاز) هذا إلى ملك آشور تغلات بلاسر.

ولقد أنشئ نظام للتجسس في آشور، ومن هذا الزمن نسمع عن جواسيس من (أوراريتا) كان الآشوريون يدفعون لهم رواتبهم، ولقد سمعنا عن تقاريرهم في بعض الحالات، ومن المعقول أن نفترض أن هذا الإجراء لم يكن محصوراً بأورارتو، وفي أثناء هجوم سنحاريب على أورشليم عام ٧٠١ ق.م كان الموظفون الآشوريون يعرفون بالطبع (إذا جاز لنا أن نصدق القصص التوراتية) كميات وافرة من المعلومات عن التطورات الداخلية في مملكة يهوذا.

لقد بدا من الواضح معرفة أعمال تغلات بلاسر بصفة عامة، إذ من الصعب الوصول إلى ما فعله بصورة خاصة، وذلك لأن حولياته قد حفظت بشكل سيء، وإن إعادة ترتيب مفصلة لتاريخ وجغرافية حملاته ما تزال تقدم عدة ساعات سعيدة من الأبحاث بالنسبة لدارسي الخط المسماري، أما نقوش تغلات بلاسر فقد تعرضت إلى الأذى من عدة نواح، فقد كتب حولياته بالخط النافر على جدران قصره، وقد عمد أحد خلفائه إلى نزع تلك الألواح المجسمة واستعملها لتزيين قصره الجديد الذي كان يبنيه، وقد أساء ترتيبها وأتلفها عند القيام بهذا العمل..

وبعد ذلك وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حاول أحد الحفارين الوصول إلى الألواح فتسبب في زيادة الإساءة، وذلك لأنه قص بعض الأجزاء المنقوشة للتخفيف من وزنها وتسهيل نقلها.

«آه أيها الفن، كم من الجرائم تقترف باسمك!». وقد حاول عضو بعثة الحفريات هذا أن يتجنب ضياع المعلومات وذلك بنسخ النص على أوراق، ولكن الأوراق تعرضت للغرق واختفى قسم منها بين دهاليز المتحف البريطاني، وفوق ذلك فإن الذين توصلوا إلى النصوص الأصلية وقطع الورق نشروها بشكل سيئ، وإن

obeikandl.com

أحد العوامل الكامنة وراء هذا الخلل النهائي هو أن تغلات بلاسر كان واقفاً ضد غالبية التواريخ التوراتية كما يظهر في كتاب الملوك، وهكذا فقد أصبح الاهتمام الرئيسي لبعض الباحثين لا ينتمي إلى تاريخ الشرق الأدنى في مظاهره العريضة بل كان همهم تثبيت وتأكيد الأقوال التوراتية حول التاريخ الإسرائيلي.

السياسة تجاه الدول التابعة

لقد وسع تغلات بلاسر الإمبراطورية الآشورية، وقد اعتبر آشور ناصر بعل وشلمناصر الثالث منطقة نهر الفرات حداً من حدود آشور العظمى تعبيراً عن حكم المناطق بشكل مباشر، وإلى الغرب كان هناك دويلات خاضعة وموالية مرتبطة بآشور بالمعاهدات أو بالتهديدات العسكرية.

ولكنها كانت بالحقيقة مستقلة رسمياً، ولكن تغلات بلاسر بدل كل هذه المفاهيم، ففي أثناء حكمه أصبحت بعض الولايات التابعة سابقاً فيما وراء الفرات ولايات محكومة بشكل مباشر، وقد تابع خلفاء هذا الملك توسيع هذا الوضع.

فهل كان هذا العمل نتيجة لاتباع سياسة واستراتيجية جديدة أم لم يكن سوى نتيجة اتباع سياسة سابقة؟.

ولكن الشواهد تشير إلى تصويب الرأي الأخير، فقد قدمت التوراة تفاصيل حول ضم مملكة إسرائيل إلى الحكم الآشوري، ومن الواضح أن تغلات بلاسر حاول جهده لكسب تعاون إسرائيل كدولة تابعة، ولكن وبعد أن فشلت هذه المحاولات عمل أحد خلفاء هذا الملك إلى غزو إسرائيل واحتلالها.. وكذلك في مملكة يهوذا نرى أن أحاز ملكها قد استنجد بتغلات بلاسر طالباً العون، ولم يكن ليفعل هذا لو كان يدري أن هذا سوف يؤدي إلى ضم مملكته لآشور (وهذا لم يتم بالنتيجة) وهنا نرى أحد حكام الولايات في شمال سورية التابعين لآشور يعدد بوضوح العلاقات الوثيقة ما بين أبيه وبينه من جهة وبين تغلات بلاسر الثالث من جهة أخرى.

obeikandl.com

(لقد أمسك أبي بحاشية سيده ملك آشور العظيم وعندئذ عاش هو وعاشت (عدي) (اسم المملكة) لقد سار أبي إلى جانب دواليب عربة سيده تغلات ملك آشور ورافقه في حملات امتدت من الشرق إلى الغرب، ولقد مات والدي تحت قدمي سيده تغلات بلاسر ملك آشور، وقد بكت عليه جميع معسكرات سيده، وقد أقام له سيده تمثالاً على حافة الطريق، وحُمل أبي قادماً من دمشق، ونظراً لولائي وولاء والدي فقد عينني سيدي تغلات بلاسر ملكاً).

ومن الواضح أنه لم يكن لهذا الملك أي سبب يدعوه أن يفكر أنه ما دام تابعاً وموالياً لآشور فان مملكته سوف تضم إلى آشور.

لقد كانت مشكلة آشور العظمى عند تولي تغلات بلاسر الحكم هي (أورارتو) وقد كانت السيطرة على الطرق التجارية السورية ضرورية لتأمين ورود الأخشاب والمعادن والخيول، ولقد كانت مملكة أورارتو مصممة على السيطرة على سورية الشمالية، وبوجود هاتين القوتين في الميدان (مع وجود قوة ثالثة وهي مصر التي كانت أقل قوة ولكنها استعادت بعض قواها في هذا الوقت بحيث لا يجوز إغفالها) ولهذا فقد ثبت أن معظم الدول التابعة غير جديرة بالثقة في الأوقات الحرجة، وذلك من وجهة النظر الآشورية، ولهذا فقد اضطرت آشور وحفظاً لأمن الطرق التي كانت تعتمد عليها أن تقدم وتنفذ حكماً مباشراً للولايات، وأن تضعف المجال المحلي للتمردات عليها وذلك عن طريق تهجير الفئات المتنفذة.

وهنا وبغض النظر عن مبادئ تغلات بلاسر التوسعية، وبسبب حالة سجلاته السيئة، فإننا نلاحظ أن التفاصيل قد بقيت موضوعاً للبحث بالنسبة لعدة نقاط، وفي الاستعراض التالي سوف نذكر التفاسير التي اقترحها الباحث الإسرائيلي حاييم تدمور.

التوسع خلال حكم تغلات بلاسر الثالث

ذكرنا سابقاً موضوع الخصومات الحدودية المستوطنة التي وقعت بين آشور وبابل، والتي طال ذكرها، ولم نقصد كسر التقاليد أثناء حكم تغلات بلاسر

عندما نبدأ بتأكيد الحقوق الآشورية بالحدود المتنازع عليها مع بابل في الجهة الجنوبية الشرقية، وبهذه المناسبة استطاع تغلات بلاسر نظراً لضعف بابل المسبب عن الاضطرابات الداخلية أن يُثبت الحدود في أقصى الخطوط الجنوبية على طول نهر ديالا من زاغروس إلى نهر دجلة، ولقد حدثت أيضاً عدة اختراقات آشورية إلى الجنوب، حيث كان هناك بعض القبائل وهم الكلدانيون الذين ذكروا آنفاً والذين سوف نقابلهم كخصوم مقاومين لآشور فيما بعد، كان هؤلاء الكلدانيون يمزقون ويوقعون الفوضى في بابل، وبعد ذلك التفت تغلات بلاسر إلى الاهتمام بمشكلته الرئيسية وهي شمال سورية.

وهنا نجد أن مملكة أورارتو قد قامت بتقدم ذي أهمية حديثاً، فقد أخضعت عدة دول على الخط إلى الغرب من نهر الفرات وهي ميليد وكوموخ وكركميش وأصبحت هذه الدول تابعة لأورارتو، هذا وقد انضمت (ارباد) إلى الجنوب الغربي من كركميش وهي التي كانت تسيطر على مشارف المناطق في أقصى الجنوب، تلك المشارف التي كانت ذات أهمية بالنسبة للطرق الآشورية إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت ترتبط بمعاهدة اسمية مع آشور، وقد انضمت هذه المملكة إلى الائتلاف ضد آشور.

وفي عام ٧٤٢ ق.م قام تغلات بلاسر بمهاجمة (أرباد) التي كانت تحتلها الجيوش الأورارتية، وتشمل قائمة (ليمو) (وهي وثيقة تقدم قائمة تقريبية للحوادث ذات الأهمية بالنسبة للأغراض التاريخية) مايلي وذلك بالنسبة لحوادث عام ٧٢٣ ق.م:

((في (أرباد) حصل انكسار لقوات أورارتو)) ولكن استغرق حصارها مدة سنتين حتى استولى الآشوريون على تلك المدينة، وقد تسبب هذا في خضوع عدة مدن لحكم آشور عن طريق دفع الجزية، بينما كان تغلات بلاسر يقوي مواقعه في شمال سورية، وكان هذا في عام ٧٤٠ الذي أصبح يسجل عام فتح أرباد وجعلها قاعدة للعمليات الرامية إلى هزيمة الدول الخارجة عن الطاعة.

وهنا التفت تغلات بلاسر لمعالجة دولة خاضعة لأورارتو وهي بلاد (أولويو) في منطقة (دوهوك زاخو) الواقعة إلى الشمال من نينوى، والتي كانت متاخمة لأراضي آشور والتي لا يجوز تركها مُرتاحة تحت أيادٍ أجنبية، وهي تمثل تهديدات أورارتو لآشور، وهكذا استولى تغلات بلاسر على هذه المنطقة التي كانت مزدهرة، كما ذكر أن تسعاً وعشرين مدينة قد أصبحت تحت الحكم الآشوري المباشر، وقد هاجر إليها بعض السكان المنقولين من المناطق المغلوبة، ونظن أنهم كانوا من شمال سورية، ولقد جلبت لتغلات بلاسر تلك النشاطات التي بدأها من قاعدة (أرباد) عام ٧٤٠ جلبت له الجزية التي تدل على القبول النهائي للحكم الآشوري، وذلك من عدد من الدول التي تم قهرها حتى حدود فلسطين.

وفي هذه النقطة نرى أن تسجيلات واسعة كانت متأثرة بحيث كانت إعادة بناء عدة أماكن ممكنة، ولا تزال الاختلافات الأكاديمية لدرجة قطع الأعناق مستمرة حول تفاصيل تافهة، مثل الاختلاف على التاريخ المضبوط حول دفع الجزية من قبل (مناحيم) في إسرائيل، والتي سجلتها التوراة، ومع ذلك فيبدو أن بعض الدول البعيدة في جنوب سورية وفلسطين قد استنكفت عن دفع الجزية، وبهذا أظهرت أنها لم تكن موالية لآشور، ولهذا فقد قام تغلات بلاسر عام ٧٣٨ بعرض لقواه العسكرية في جنوب سورية وكان هذا سبباً في دفع مناحيم الإسرائيلي الجزية لآشور، وفي سفر الملوك يذكر أن بول (وهو تغلات بلاسر ملك آشور تقدم ضد الأراضي ولهذا فقد قدم مناحيم إلى بول ألف مثقال من الفضة، وتعهد أن يبقى معه لكي يثبت بقاء المنطقة تحت حكمه).

وإن ما ورد في التوراة عن الحوادث التي سبقت الحوادث التي ذكرناها، يذكر أن مناحيم قد استولى على العرش في إسرائيل في أواخر حكم عزريا ملك يهوذا، ومن الممتع أن نعلم أن تغلات بلاسر قد قابل شخصاً اسمه (عزر ياهو) وهو شخصية بارزة في التحالف السوري وكان يحظى بدعم سوري حتى حماة، ولقد اعتبر البعض أن (عزر ياهو) هو ملك يهوذا نظراً لأن عزر ياهو قد التحق به أو حتى ألف تحالفاً سورياً يشمل الدول المناهضة للدول الخاضعة لآشور، ولكن ومع أن

هـذا كـان ممتعـاً بالنـسبة للتـواريخ التوراتيـة، إلا أن هـذا الخـبر لـيس لـه أي صـلةٍ بإعادة إنشاء تغلات بلاسر لاستراتيجيته الجديدة.

وابتـداءً مـن عـام ٧٣٧ حتـى عـام ٧٣٥ ق.م كـان تغـلات بلاسـر مـشغولاً بتنفيـذ إجراءات ضد أورارتو في أقاصي المناطق الشرقية حتى أراضي الميديين الواقعة إلى الشرق من زاغروس في شمال غرب إيران.

هـذا ولقـد أعطـى انـسحاب الجـيش الآشـوري الرئيـسي مـن سـورية انطباعـاً مـضللاً عـن مقـدرة الآشـوريين علـى الاحتفـاظ بقـوتهم ومركـزهم، فلقـد شـكلت اتحـادات ضـد آشـور لاسـيما مـا بـين دمـشق والـدويلات في فلسطين، مـع أن (أحـاز) كان خارج هذه التحالفات (ربما كان ذلك بناءً على نصيحة النبي أشعيا) وهكذا دعا هذا الملك راعيه وملكه تغلات بلاسر لتأييده، ولقد أخمد تغلات بلاسر تلك الإضطرابات بسهولة وحول دمشق وبعض أجزاء إسرائيل إلى ولايات، مع أنه ترك الجزء الأوسط من إسرائيل تحت حكم ملك وطني وهو (هوشيا) الذي عينه بدلاً من المتمرد (بيكاخ) وذلك بدلاً من أن يجعل جميع المناطق المهزومة تحت حكم آشوري مباشرة، فقد كان تغلات بلاسر حريصاً على محاولة الاحتفاظ بولاء الممالك الخاضعة كلما كان ذلك ممكناً.

obeikandl.com

الصراع مع الكلدانيين

لقد ظهرت بعض المشكلات أمام تغلات بلاسر في منطقة جديدة، فلقد ذكرنا سابقاً عن الكلدانيين الذين كانوا يمزقون بابل وقد كان هؤلاء شعوباً قبلية ولديهم بعض أوجه الشبه بالآراميين، فقد دخلوا إلى جنوب بابل حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، وأنشأوا أول مستوطناتهم في مناطق المستنقعات في أقاصي جنوب بابل وهي المستنقعات العراقية الشهيرة، وبعد ذلك بدؤوا بالتحرك إلى أعالي نهر الفرات ومحاولة السيطرة على بعض المدن القديمة.

وفي عام (٧٣٤) قام أحد الزعماء الكلدانيين البارزين من قبيلة (أموكاني) باحتلال بابل وكان اسمه (وكين – زير) بالاستيلاء على العرش، ولهذا فقد انقسمت بابل في ولائها، وبالنسبة للشعب الكلداني فإن جارهم الشمالي كان يمثل النظام القديم المستقر القائم ضد الكلدانيين المُخربين، وعندما استجاب تغلات بلاسر للوضع بإرسال القوة العسكرية فإن كثيراً من السكان المدنيين في بابل وحتى بعض السكان غير الموالين للكلدانيين مثل شعب باكودو قد رحبوا بهذا العمل، وقد ذكر باكودو في كتب (أرميا وزكريا)، ولدينا بعض المراسلات الحقيقية التي تعود إلى تلك الحملة التي بعث بها بعض القواد إلى الملك، وتذكر إحدى هذه الرسائل قضية المحادثات التي جرت على أبواب بابل ما بين الموظفين الآشوريين والشعب في الداخل، فقد كان الآشوريون يودون التفاهم مع العامة مباشرة متجاوزين الحكام المتمردين، وذلك بنفس الطريقة التي تمت بها المقابلة بين القائد الآشوري (ربشاتي) مع اليهود أثناء حصار أورشليم عام ٧٠١ ق.م وهذه الحادثة قد ذُكرت في التوراة، ولكن الموقف الكلداني كان قوياً بحيث إن غلبة الآشوريين لبابل قد تمت خلال ثلاث سنوات، ولقد كان النجاح الآشوري مدين للدبلوماسية أكثر منه للقوة العسكرية، وبين المراسلات الملكية التي تعود إلى هذه الفترة هناك عدة رسائل تظهر أن تغلات بلاسر كان على ارتباط مع عدد من قواد وزعماء كلدانيين مختلفين، بما فيهم المدعو (باردوك – أبيل – أيدينا) من قبيلة (بيت باقين) وهو نفس (بيروراك – بالادان) المذكور كأحد المفاوضين

obeikandl.com

مع (حزقيا ملك يهوذا في فترة تالية) وإن رد الفعل الذي أظهره أشعيا إزاء تلك المفاوضات يظهر أنه لم يكن يثق ببيروداك – بالادان، إذ إن أشعيا كان له أسبابه الخاصة، فقد كان بيروداك جاسوساً مزدوج النزعات، إذ إن الرسائل الآشورية الموجودة الآن تظهر أنه وفي زمن المتمرد (أوكين – زير) كان ميروداك يقبض أموالاً بالسر من تغلات بلاسر لطعن رفقائه من الكلدانيين في الظهر.

ولقد عرفت تكتيكات الآشوريين في احتلال بابل بالتفصيل، فقد توجهت الهجمة من ولاية (أرابخا) (كركوك) فقد تحرك الجيش الآشوري جنوباً أسفل الضفة الشرقية لنهر دجلة ليدخل بابل بعد عبور النهر في مكانٍ ما قرب بغداد، وقد كانت بعض القبائل الموالية تحرس الطرق بينما كان الجيش الآشوري يتحرك غرباً ليصل إلى المدن البابلية الشمالية التي كان الكلدانيون المتمردون يحتلونها، وهكذا سقطت بابل وهرب (أوكين – زير) جنوباً ليلتقي بعاصمته القبلية في المستنقعات الجنوبية، ولكن جيشاً آشورياً لحق به وتابعه إلى هناك بعد أن ضربوا أراضيه وأراضي حلفائه من القبائل، مع أن الزعماء الموالين لآشور مثل بيروداك – بالادان نجت أراضيهم ولم تخرب وعندما استقرت الأمور بعد ثلاث سنوات أصبحت بابل تحت الحكم الإداري الآشوري، وبالتالي فقد أمسك تغلات بلاسر بيد الإله (مردوخ) أي أنه (أخرج معه تمثال الإله) في احتفال جرى في بابل وبذلك فقد كان مخولاً بشكل رسمي بامتلاك بابل وتنصيبه ملكاً عليها، تلك الوظيفة التي لم يحصل عليها أي ملك آشوري منذ أكثر من أربعة قرون..

وقد اعترف الكهنة رسمياً باحتفال باهر لتغلات بلاسر ممثلاً للآلهة والملك الشرعي لبابل وذلك بإشراكه في وجبة ووليمة سرية خاصة بالأسرار المقدسة والمقامة تكريماً للآلهة، وقد حدث هذا في عام ٧٢٩ ق.م، ولقد توفي تغلات بلاسر بعد عامين بعد أن ترك آشور تحكم إمبراطورية ممتدة من الخليج الفارسي إلى حدود مصر وتتوسع شمالاً خلال شمال سورية إلى كليكيا والأناضول.

ولقد اكتسبت الحملات الآشورية تحت قياة تغلات بلاسر السيطرة على الساحل الفلسطيني جنوباً حتى قطاع غزة، وكان هذا يظهر تهديداً لمصر وأيضاً

لقد تدخل الآشوريون بالتجارة المصرية، فقد فرضوا حظراً على تصدير الأخشاب من لبنان إلى مصر، وكانت هذه العوامل حافزة لمصر لتنظيم حركات ضد الآشوريين في فلسطين وجنوب سورية في السنوات التالية، وقد كانت النتيجة الأكثر دراماتيكية محاصرة وسبي السامرة من قبل الآشوريين وكانت السامرة هي عاصمة ما تبقى من إسرائيل وهي التي ذكرتها التوراة.

اعتلاء سرجون العرش

لقد ادعى سرجون الثاني أنه ابن تغلات بلاسر وقد استولى على العرش بعد قيام اضطرابات في العاصمة القديمة آشور ضد سلطة شلمناصر الخامس الذي حكم وقتاً قصيراً من (٧٢٧ – ٧٢٢) وقد قام شلمناصر الخامس هذا بمحاولة لفرض أعمال السخرة على المجتمع بعكس كل من سبقه. فقد كان لسلطة ملوك آشور حدوداً، واعترافاً بالدعم الذي لقيه سرجون عند استلامه السلطة فقد أعلن سرجون الإعفاء من بعض الضرائب وبعض الالتزامات ليس لشعب آشور فحسب بل أيضاً لجميع معابر بلاد آشور، وهكذا فقد فرض أعباء ضخمة على الأموال الإمبراطورية.

لم يكن أمراً غير متوقع أن قيام الإضطرابات في بلاد آشور قد أيقظت كصدى لما حدث في بعض الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، وسرعان ما واجه سرجون بعض الإزعاجات في بابل.

ولقد قابلنا في وقت مضى عيلام الواقعة في جنوب غربي إيران، وفي أواخر القرن التاسع بدأنا نسمع عن قيام العيلاميين مع الكلدانيين وقبائلهم بمصادمات مع دولة آشور، وقد كان قرب أراضي عيلام من مناطق الكلدانيين في بابل الجنوبية قد وحد اهتمام الشعبين، وفي بداية حكم سرجون أمن بيروراك – بالادان حلفاً رسمياً مع عيلام وبمساندة هذا الشعب استطاع الاستيلاء على بابل عام ٧٢١ ق.م، وقد ادعى حقه في ملك بابل بكونه منحدراً من أحد الجدود الذي عين نفسه ملكاً في أول ذلك القرن، وكما حدث في عصيان أوكنزر فقد تحرك

obeikandl.com

الجيش الآشوري إلى الجنوب إلى بابل إلى الشرق من نهر دجلة، ولكن في هذه المرة حال دون تقدمهم حلفاء (بيروراك) – بالادان وهم يؤلفون الجيش العيلامي في (الدير) ومع أن سرجون ادعى سحق جيش (هميانيجاش) ملك عيلام ولكن الحقيقة أن أي عمل ضد (بيروراك – بالادان) قد صد لمدة عقد من الزمان.

ولقد منع سرجون من تكريس موارد أكثر وذلك بسبب المشكلات التي ظهرت في أمكنة أخرى، ومن هذه الأماكن كانت سورية حيث حاولت عدة مرات إنشاء تحالف آخر ضد آشور وذلك بالتحالف مع أرباد والسامرة، ولكن استطاع سرجون القضاء على هذا التحالف بسهولة وسقطت حماة لتصبح تحت حكم آشور المباشر، وتلمح التوراة لبعض العمليات التي قام بها سرجون في المنطقة الساحلية في جنوب فلسطين، مع أنه ينبغي أن يقال إنه مهما كانت هذه الحركات الدرامية القادمة من العاصمة أورشليم، إلا أن هذه الحركات كانت ذات تأثير بسيط على القوة الإمبراطورية الآشورية.

المشكلة الأورارتية الحل النهائي

وكما كان الحال مع تغلات بلاسر، فقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت سرجون في الشمال، فقد كانت أورارتو لا تزال المنافس لطرق التجارة خلال كليكيا والأناضول، والآن لقد مدت أورارتو نفوذها فوق المنطقة إلى الجنوب من بحيرة (أورروميا) الواقعة في شمال غرب إيران (أذربيجان) وكانت هذه المنطقة ذات أهمية لآشور لتزويدها بالخيول والطرق القادمة من الشرق الأقصى، ولقد كانت الرسائل المرسلة من الحكام المحليين إلى الملك في هذا الزمن مملوءة بالإشارات إلى بعض التصادمات مع (أورارتو) وعن محاولات أورارتو للاندفاع جنوباً في زاغروس، وتشير بعض هذه الرسائل إلى استخدام جواسيس من أورارتو في نظام الاستخبارات الآشوري الرائع.

ولهذا قرر سرجون القيام بغارة على (أورارتو) نفسها وكانت عملية محفوفة بالأخطار نظراً لصعوبة التضاريس الطبيعية، ولقد توجت الاصطدامات الحدودية

مـع أورارتـو بنـشوء حملـة منظمـة في صيف عـام ٧١٤ والـتي اصبح لـدينا معلومـات مفصلة عنها وذلك مـن تقرير كتبـه سـرجون بشكل رسـالة إلى إلـه الـبلاد آشـور، وبعد أن ترك سرجون قاعدته (كالاخ) تقدم شـرق الصور الـزاب العلـوي والـسفلي وهكـذا إلى زاغـروس، ويمكننـا اعتبـار سـرجون إمـا شـاعراً مجيـداً أو أنـه كـان هنـاك أحـد الكتـاب في بطانتـه ممـن يملكـون مقـدرة شـعرية، وذلـك لأن التقريـر كـان يعكـس في شـعره صـدى حيـاً للرهبـة الـتي تجـاوب بهـا مـع المنظـر الجليـل الرهيب:

في الجبال العالية حيث تنمو الأشجار من كل صنف متضافرة الأغصان.

في أواسط الفوضى الجبلية حيث تظهر ممراتها حوضاً مرعباً.

حيث تمتد الظلال وكأنها غابة من أشجار الأرز.

وحيث لا يرى من يدوس تلك الدروب أي شعاع من أشعة الشمس.

ومـن الممكـن أن ينحني الـشاعر دهـشة أمـام الجبـال، ولكـن كـان سـرجون متأكداً من وجود مهندسين عسكريين في جيشه قادرين على جعل الممرات قابلة للاستعمال.

"لقـد زودت مهندسـي بمعـاول مـن نحـاس وراحـوا يكـسرون ويحطمـون صـخور الجبال الوعرة كما لو أنها من حجر كلسي وذلك ساعدني على العبور."

ومع أن النص يذكر النحاس إلا أنه يعني خليطه وهو البرونز.

وبعد أن عبر المنطقة إلى الشرق من زاغـروس توجـه سـرجون نحـو بـلاد المانـاي، وقـد وصـل الآن إلى جنـوب بحـيرة (أورومـيـا) وقـد كـان شـعب المانـاي المـسكين في وضع لا يُحسدون عليه لأنهم أصبحوا حاجزاً عازلاً بين جـارين جبـارين، وقـد عـانوا أكثر من مرة عندما تتغير السلطة في أي منطقة مـن هـذه المنـاطق لاسيما عنـدما يقبلون نظام الحكـم في المنطقـة المعنيـة، وهكـذا فقـد خـضع حـاكم المانـاي فـوراً لسرجون مع أن جاره قد وضع مصيره مع (روسا) ملك أورارتو.

أما الوصول إلى أورارتو إلى الغرب من بحيرة أورروميا فقد وقفت أمامه ومنعته عدة حصون تشكل خطاً واحداً، ولذلك فقد أخذ سرجون جيشه إلى أعلى الجانب الشرقي من البحيرة وذلك لكي يلتف حول مراكز الدفاع الرئيسية المناهضة لآشور وفي الوقت الذي بدأ فيه التلامس مع جيش أورارتو الرئيسي الذي كان يدافع عن ممر جبلي إلى الجنوب من ابريز، فقد أصبح سرجون منفصلاً عن قادته في الوطن مسافة نحو ثلاثمائة ميل وهذا يشمل جميع منطقة الزاغروس، وكانت هذه المسافة عبارة عن تضاريس طبيعية صعبة، وهكذا أصبح جنود سرجون على وشك التمرد وقد قال معلقاً على ذلك:

«إن جنود آشور المتعبين الذين قد قطعوا مسافة طويلة قد أصبحوا مرهقين جداً وبطيئين في حركاتهم، فهم قد عبروا وأعادوا عبور الجبال الشديدة الانحدار وقد لاقوا المشقة العظيمة عند الصعود والنزول، ولقد أصبحت أرواحهم المعنوية منخفضة وتميل إلى التمرد ولا أستطيع أن أخلصهم من هذا الضجر وليس لدي الماء لأطفئ عطشهم ولا أستطيع نصب أي معسكر أو أن أقيم خطوطاً دفاعية».

لقد أدرك سرجون في تلك اللحظة عدم قدرته على الاعتماد على انضباط جيشه، فقد عمد إلى قيادة هجوم بالعربات الحربية وجنود الخيالة وهو يذكر رئيس الخيالة بالاسم وعندها اندحر العدو عندها قام بقية الجيش الآشوري الذين تشجعوا بانتصار الخيالة وانتصار خطة سرجون الممتازة، قام هؤلاء بالانقضاض على التحالف الأوراري وحطموا خطوطهم الحربية وأوقعوا فيهم الذعر، ولهذا فقد قاد القائد الأورارتي جيشه في انسحاب منظم من المعركة ولكن بقية التحالف الذي أصبح بدون قيادة منتظمة هربوا في فوضى عارمة فوق الجبال حيث هلك عدد منهم في البراري، وكان انكسار الجيش الأورارتي صدمة للمعنوية الأورارتية، واستطاع سرجون أن يلتف حول النهاية الجنوبية لبحيرة أورروميا غرباً إلى زاغروس مرة ثانية وبعد ذلك توغل دون مقاومة في أراضي أورارتيا، عندها هرب الملك (روسا) من عاصمته ثوروشبا (وربما كان هذا الهروب غير ضروري وكان من السهل الدفاع عن منطقته (ولم يكن سرجون مستعداً لحصار طويل

الأمد) وبعدها التجأ الملك (روسا) إلى الجبال وهناك وطبقاً لما قاله سرجون مات (روسا) من الحزن مع أن نصاً متأخراً (وربما كان أقل موثوقية) يذكر أن سرجون قال إن الملك روسا قد انتحر.

لم يزل الخط الذي تبعه آشور في حملته يحتوي على كثير من النقاشات، ويظن البعض أنه سار رأساً حول بحيرة (فان) ويقول آخرون إنه توجه راجعاً إلى آشور بواسطة عدة طرق ممكنة إلى الجنوب من بحيرة (فان) هذا وإن ما هو أكيد نظراً لأن سرجون يخبرنا ذلك بصراحة (أو بالحري يخبر الإله آشور) أنه وقبل مغادرتهم بادر الآشوريون إلى نهب أورارتو حيثما ذهبوا وكانوا ينهبون ويحرقون المدن والمحاصيل الزراعية ويتلفون الحدائق ويفتحون وينهبون مخازن الحبوب ويحطمون السدود بحيث أن سالت مياه الأقنية هدراً إلى المستنقعات بينما تركوا المراعي عارية، وقد قطعوا الأشجار سواءً كانت أشجار الحدائق أو الأشجار المزروعة حول القصور أم أشجار غابات عادية وأحرقوها جميعها.

وفي أثناء عودته إلى آشور ترك سرجون جيشه الرئيسي وقاد فصيلاً مؤلفاً من حوالي ألف جندي من الخيالة فوق طرق صعبة متجهاً إلى إحدى المدن وهي (موزازير) وهي جزء من أورارتو في عمق الجبال وتقع إلى الشمال الغربي من رواندیز التي قد أهملت إعلان الخضوع التام لآشور وسرجون نظراً لبعدها عن آشور، وكانت موزازير المعقل الرئيسي لإله أوراريتا وهو (هالديا) حيث كان يتوج ملك أورارتو عادة، ولقد كانت قداسة موزازير وارتباطاتها الملكية قد جعلتها كنزاً وطنياً، وقد عمد سرجون إلى تعداد الغنائم التي حصل عليها من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والمفروشات المرصعة بالذهب والفضة والأواني الذهبية والفضية من جميع الأنواع والأسلحة الاحتفالية، المؤلفة من المعادن الثمينة والأواني البرونزية ابتداءً من الأواني الصغيرة حتى القدور الضخمة والتماثيل والزخارف، وهناك بعض التسميات التي لا نفهمها وقد وجد الكتبة الآشوريون الذين سجلوا هذه الأسماء بعض هذه الأسماء غريبة ويقولون: إنه من الصعب كتابة هذه

الأسماء، ولقد تم ضم موزازير رسمياً إلى آشور ولكن موقعها كان بعيداً جداً فكان من الصعب الاحتفاظ بها بعد رحيل سرجون.

ولم يكن تجاوب سرجون مع مشكلة أورارتيا منحصراً بالناحية العسكرية فحسب، بل استعمل الدبلوماسية لكسب لحلفاء، إذ إن لدينا رسالة تقدم بعض التفاصيل عن بعض المفاوضات الودية مع مميتا ملك (موشكي) فقد كان (مميتا) يسيطر على الطريق التجاري الغربي الذي قدم لدولته ثروة عظيمة (وقد كان مميتا هذا هو ميداس ذو اللمسة الذهبية في الأساطير اليونانية) ولا شك أنه وحفظاً لمصالحه التجارية فقد أقام علاقات ودية مع أورارتو وسورية الشمالية، أما في شمال سورية فقد حاولت كركميش تأمين الدعم الفعلي لميتا في إنجاز تحالف ضد آشور، وهكذا فقد تفاوض سرجون مع مميتا لكي يتجنب تلك التهديدات للمصالح الآشورية وقد اقترنت مبادراته الدبلوماسية مع استعراضات للقوة العسكرية التي يمتلكها في شمال سورية وما وراءها.

سرجون في بلاد بابل

بعد أن حطم سرجون مقاومة أورارتو استطاع الآن أن يتجه إلى تلك المشكلة المتأصلة وهي مشكلة (بابل)، وكانت عملياته العسكرية هناك والتي بدأت في عام ٧١٠ ق.م ودامت حتى عام ٧٠٧، ولقد قلد سرجون تكتيكات تغلات بلاسر، الأولى وذلك بالتحرك جنوباً على الضفة الشرقية لنهر دجلة وبذلك كسب السيطرة على طول المنطقة الممتدة حتى كركميش، وبذلك فقد دق إسفيناً ما بين ميرورداخ – بالادان وبين حلفائه المحتملين من العيلاميين، وبعد ذلك توجه إلى بابل الأصلية، وقد ادعى بيروداك – بالادان في النقوش أنه قد حمى مصالح المدن البابلية القديمة، ولكن هناك جزءاً لا بأس به من سكان تلك المدن كانوا يشكون في مصداقية هذه الأقوال، وقد سمعنا فيما بعد عن إطلاق سراح بعض الأسرى من عاصمة بيروداك – بالادان لقاء إعادة بعض الأراضي المصادرة وعن إخماد حركات النهب والسلب ضد التجار والقوافل التجارية، ولهذا فقد كان

obeikandl.com

هناك فئة قوية ضمن المدن البابلية الشمالية مستعدة لقبول التدخلات الآشورية، وقد فتحت بعض هذه المدن ومن بينها العاصمة أبوابها ورحبت بسرجون الذي اعترف به رسمياً حاكماً شرعياً لبابل وذلك بالاشتراك في الطقوس المقدسة.

وفي أثناء ذلك فقد هرب بيروداك – بالادان من بابل وبعد أن حاول الوقوف في الجنوب هرب إلى منطقة قبائله في المستنقعات الجنوبية، وقد أصبح محاصراً في عاصمته القبلية في المستنقعات الجنوبية فقد اشترى دعم سرجون بدفعه كمية كبيرة من المال عام ٧٠٧ ق.م وبذلك تركوه دون أن يُمس ليسيطر على أراضيه القبلية ولكننا سوف نقابله فيما بعد.

لقد اقتربت نهاية سرجون الآن، وربما قربها تحطم أورارتو، ففي القرن الثامن ق.م آتت موجة جديدة من الهنود الأوروبيين السريعي الحركة وهم (السيمريون) وكانت هذه الموجة مندفعة نحو الأناضول من الشمال إلى أسفل الجانب الشرقي من البحر الأسود، وحتى وقبل هجوم سرجون على أورارتو كان هؤلاء السيميريون قد أنزلوا التخريبات الخطرة في ولايات أورارتو الشمالية. ولقد كان إخلاء السكان الذي حصل نتيجة لتخريب سرجون لأورارتو، ترك أورارتو عاجزة عن صد الغزاة وهكذا فقد انفجر السيمريون وانتشروا عبر هضبة الأناضول. وتشير بعض الشواهد لعلم الأثار لحدوث غارة على آشور نفسها، فلقد هدد هؤلاء بالتأكيد مصالح آشور في شمال سورية ولذلك فقد وجه سرجون جيشه ضد السيميريين في تلك المنطقة وفي إحدى التفاسير لبعض الشواهد الغامضة فقد مات سرجون في إحدى المعارك، والحقيقة أنه قد رحل من مسرح الأحداث في عام ٧٠٥ ق.م وفي نفس الوقت تحرك السيميريون باتجاه القسم الداخلي من أسمرا الصغرى.

بناء قلعة سرجون

كان سرجون أحد الملوك الآشوريين الذي انتقل إلى عاصمة إدارية جديدة، مع أنه لم يخبرنا لماذا فعل ذلك، ولكننا نستطيع التخمين ففي العالم القديم كان سكان المدن الكبيرة ولاسيما العواصم يحصلون وبسرعة على امتيازات خاصة

لأنفسهم، وكان الملك مجبراً على الاعتماد على موظفيه في العاصمة وكان يكافئهم بإعفائهم من الضرائب وأعمال السخرة وبمنحهم بعض الأراضي، وحسب النظام الإقطاعي كانت مثل هذه الامتيازات تستمر إلى الخلف وتصبح متوارثة، وبالإضافة إلى نفوذ كهنة المعابد التي كان لها نفوذها وأمكنتها في طقوس الدولة، لذلك فقد ظهرت مجموعة محصنة منهم، وكانت هذه المجموعة قادرة على مواجهة الملك نفسه.

ولقد ظلت (كالاخ) العاصمة الإدارية والعسكرية لمدة تقرب من قرنٍ ونصف وهو وقت كافٍ لظهور مجموعة قادرة على مقاومة الملك نفسه، والحقيقة أن الحاكم سرجون الذي أعلن أن (تغلات بلاسر الثالث كوالده قد تولى السلطة من موقع والي (كالخ) وقد كان سرجون نفسه يعلم من تجربته الشخصية الخطر المحدق بالسلطة الملكية من جراء المصالح التي اكتسبتها المدن القديمة، وذلك لأن اعتلاءه العرش قد حدث بعد تمرد ضد الملك الذي سبقه من قبل شعب آشور الذين كان ينبغي دعمهم، فرد جميلهم بتثبيت امتيازاتهم التقليدية، وهذا هو أحد العوامل التي دعته لإنشاء عاصمة جديدة، وهي دور شاروكين (أي: قلعة سرجون) وهي واقعة على بعد حوالي ١٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من نينوى والتي تتمثل اليوم بموقع (خورسا باد).

وأما العامل الثاني فقد كان عاملاً استراتيجياً فقد كانت سفوح جبال طوروس تبدأ على بعد حوالي ثلاثين ميلاً إلى الشمال من نينوى، وفيم وراء تلك التلال تقع مملكة (أورارتو) وهي القوة الوحيدة التي كانت تهدد آشور الآن، وفي أي وقت كان بمقدور جيش أورارتو أن يزحف من أحد الممرات ويصل إلى سهول نينوى (وقد ظل هذا الخطر حتى أنهى سرجون هذا التهديد عام ٧١٤).

وكان الموقع الذي اختير لبناء العاصمة الجديدة (دور شاروكين) يقف كحارس ما بين نينوى وأقرب ممر يخترق الجبال، ولقد ثبتت أهمية هذا الموقع عندما استعمل كقاعدة رئيسية من قبل الجيش العراقي في زمن التمرد الكردي في نفس الجبال الشمالية حوالي عام ١٩٧٠ م.

سنحاريب

لقد اعتلى خليفة سرجون وهو ابنه سنحاريب ٧٠٤ – ٦٨١ العرش كإداري متمرس وجندي، فقد عَلم عِلم اليقين مشاكل الحدود الشمالية حيث إنه كان قائداً عسكرياً هناك، وإن معرفته بالوضع الجديد الذي لم تكن أورارتو فيه في وضع لا تستطيع به إيذاء المصالح الآشورية فحسب، بل كانت بحاجة إلى الحماية الآشورية في الشمال، وهذا ما أدّى بسنحاريب إلى إقامة علاقات ودية مع أورارتو.

نينوى العاصمة العالمية

لقد كان أول عمل قام به سنحاريب، وكان العمل الذي ظل قائماً، هو انتقال جديد إلى عاصمة جديدة، فقد كانت مدينة سرجون الجديدة وهي دور شاروكين قد بُنيت لحراسة المركز الشعبي وهو نينوى، وقد استمرت هذه العاصمة مستخدمة كقلعة لهذا الغرض، ولكن، كانت نينوى نفسها هي التي شُيَّدت وظهرت بشكل رائع لا مثيل له، فقد اختيرت كعاصمة، وقد بقيت كحقيقة حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، وقد بقيت في ذاكرة التاريخ إلى الأبد.

ولقد بنى سنحاريب سوراً ضخماً حول المدينة طوله حوالي ثمانية أميال، وقد احتوى على ١٥ بوابة رئيسية، ولقد ذكر أحد المؤلفين الكلاسيكيين وهو ديودورس الصقلي رواية حول أسوار نينوى يقول فيها:

((إن هذه الأسوار كانت عريضة جداً بحيث تتسع لثلاث عربات حربية لتسير جنباً إلى جنب فوق تلك الأسوار)).

ولكن وفي القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الناس يسخرون من هذا الكلام، ولكن بقايا الأسوار في هذه الأيام تُظهر وجود مسافة واسعة كافية لتسير فيها سيارتان كبيرتان جنباً إلى جنب، وفي داخل تلك الأسوار شق سنحاريب شوارع جديدة، وساحات عريضة، ومدد مجاري المياه وبنى حواجز حجرية عريضة

لحماية قصره الجديد، وحول القصر أنشأ حديقة ضخمة تشبه جبل أمانوس حيث وُزعت كل أنواع النباتات وأشجار الفاكهة كالتي تنمو في أرض الكلدان.

وفيما وراء هذه الحديقة أُنشئت البساتين، وفي وقت لاحق عمل سنحاريب إضافات جديدة فقد جلب جميع النباتات الموجودة في سورية وكذلك نبات المرّ التي نمت وترعرعت بشكل أفضل مما هي عليه في موطنها الأصلي، وقد زرع جميع أنواع الكروم الجبلية، وقد كانت كل هذه المشاريع بحاجة إلى كميات كبيرة من المياه لاسيما في أشهر الصيف الحارة في نينوى، ومع أن نهر دجلة كان يجوب أسفل نينوى إلا أن ضفافه كانت منخفضة جداً، فلم يكن من الممكن استخدامها للري خلال الصيف، ولكن كان هناك مصدر آخر للمياه وهو نهر خوسر، وهو يَرفد نهر دجلة عند نينوى وهو أصلح للري ولكن كان لنهر خوسر نقيصة واحدة وهي عدم انتظام جريانه الذي ينقص إلى أقصى حَدْ في الوقت الذي تكون الحاجة ماسة إليه.

وقد عالج سنحاريب هذه النقيصة عن طريق أعمال المهندسين، وذلك بتحويل عدة جداول جبلية كانت على بعد حوالي ثلاثين ميلاً، واستعمل مياهها لتغذية نهر خوسر، ومن الممكن اليوم ملاحظة بقايا بعض هذه الأعمال، فإن أحد مصادر المياه القادمة إلى نينوى في مكان يدعى (عن طريق الخطأ) (بافيان) وقد وُجدت عنده نقوش ولوحات جدارية نافرة موجودة على صخرة عالية تصلح لتكون مكاناً للرحلات الممتعة، وإن وجود اللوحات الجدارية يوحي أنها كانت بقعة كان سنحاريب نفسه يتمتع بزيارتها ليتجنب حرارة الصيف في نينوى، وتشمل بعض بقايا أعمال سنحاريب الهندسية وهي قناة طولها أكثر من ٣٠٠ ياردة وعشرين ياردة عرضاً، وتحتوي حوالي نصف مليون طن من الصخور، وقد بُنيت لحمل المياه إلى بعض الوديان.

هذا وقد اعتمد سنحاريب مشاريع مماثلة لتحسين الموارد المائية في أربيل وهي المدينة المهمة الثانية، وشمال آشور كما حسن موارد المياه في كالخ فقد تعهدها آشور ناصر بعل عند بنائه لها لأول مرة.

obeikandl.com

فلافل كلدانية جديدة

لقد احتل العمل في نينوى الجزء الأكبر من حكم سنحاريب، ولكن وفي أثناء ذلك كان هناك بعض الاضطرابات السياسية في بابل، فقد كان هناك إحدى المشكلات حول بابل فهل ينبغي أن تمنح بابل قدراً وافراً من الاستقلال مع وجود ملكها الموالي لآشور؟ أم هل ينبغي ضمها كلياً وحكمها حكماً مباشراً من قبل ملك آشور؟ إلا أنه كان هناك مستشارون يميلون إلى بابل، ومستشارون غير متعاطفين مع بابل في البلاط الآشوري وفي أحوال مختلفة أظهر ملوك آشور تعاطفاً مع هذه الفئة أو تلك، فقد كان والد سنحاريب وهو سرجون وابنه أسرحدون كلاهما متعاطفين مع الميل للتعامل برفق مع بابل مع كثير من الاعتبار بميول بابل الوطنية.

ومن الممكن أن يكون لدى سنحاريب ميلاً في البداية لاتباع سياسة والده، فقد مضت سنتان قبل أن يقوم بالاحتفالات الدينية لتنصيبه ملكاً على بابل رسمياً، ولكن وفي هذا الوقت بدأت بعض العوامل تعمل على أن يقوم سنحاريب بأقصى أعمال العنف الممكنة ضد بابل، ففي عام ٧٠٣ قام العدو القديم بيروداك – بالادان بتنظيم بعض القبائل الكلدانية مع بعض القبائل الآرامية مع اكتساب تأكيدات بالدعم من العيلاميين، وهكذا فقد أوقع بابل في مصاف العصيان، لذلك فقد تبع ذلك شيء من الفوضى فقد اعتلى عرش بابل أحد الولاة الذي كان ألعوبة بيد سنحاريب لمدة شهر واحد عندما أطاح به بيروداك – بالادن، ولكن رد سنحاريب كان سريعاً ونشيطاً فقاد جيشه جنوباً وحاصر واحتل مدينة (كوناة) وهي قاعدة بيروداك – بالادان.

وقد كان بيروداك هذا رجلاً سياسياً أكثر من عسكرياً، فقد هرب جنوباً تاركاً سنحاريب على طريق احتلاله لبابل ودخولها، ولقد أرسلت فصيلة من الجيش الآشوري للتفتيش عن المتمرد جنوباً (ولكن بدون نتيجة) وقد طلب من تلك الفصيلة أن تزيل تحصينات كل المناطق الآرامية والكلدانية، وتخريب هذه

obeikandl.com

المناطق التي تضم فعلاً جميع بابل الجنوبية من نيبور إلى الخليج الفارسي، ويقول سنحاريب مايلي:

«في أثناء حملتي لقد حاصرت وهزمت وحملت الغنائم من... مجموع ٣٣ بلدة ذات أسوار منيعة، وتابعة لقبيلة بيت داخوري ومعها ٢٥٠ قرية مجاورة وكذلك من ثماني مدن مسوّرة قوية من قبيلة بيت سالي، ومعها ١٢٠ قرية محيطة بها و٣٩ بلدة مسورة قوية من قبيلة بيت (راموخاني)، مع ٣٥٠ قرية مجاورة، وكذلك ثماني بلدات قوية مسورة من قبيلة بيت – ياقين بالاضافة إلى مئة قرية محيطة بها، ويبلغ مجموعها جميعها ٨٨ بلدة قوية مسورة، في منطقة كلدية بالإضافة إلى ٨٢٠ قرية مجاورة، ولقد سمحت لعساكري أن يستهلكوا الحبوب والتمور في حدائق النخيل ويأخذوا محاصيلها في السهل، ولقد مزقت وأتلفت مدنهم وأحرقتها وحولتها إلى روابٍ منسية».

وبعد أن تلقت كلديا هذا الدرس القاسي تُركت تحت حكم الموظفين الآشوريين يساعدهم أحد النبلاء البابليين وهو بيل – ابني الذي رُبي حسب قول سنحاريب في البلاط الآشوري وقد عُين كملك ألعوبة على بلاد بابل.

حصار أورشليم

لقد واجه آشور الآن في عام (٧٠٤) ق.م تمرداً في مكان آخر، فقد التحق خرقيا ملك يهوذا الذي كان يدعمه ميروداك – بالادان المذكور في التوراة بكونه قد أرسل سفارة له، فقد التحق حزقيا هذا بتمرد قامت به المدن الساحلية تدعمها مصر، وهكذا فقد دخل جيش سنحاريب إلى فلسطين وعالج المدن الساحلية وطرد المصريين وتغلب على دولة يهوذا، ووضع عاصمة (حزقيا) وهي أورشليم تحت الحصار.

وتوافق نقوش سنحاريب على هذا، وإن رواية سنحاريب حول هذه المسألة قد نُقلت وتكررت في كتب العهد القديم وتواريخه، ولكن نورد لمسامع أي شخص لم يسمع بهذه الأخبار مايلي:

obeikandl.com

«وبالنسبة لحزقيا ملك يهوذا الذي لم يخضع لنير حكمي فقد حاصرت واستوليت على ٤٦ من بلداته القوية المسوّرة، ومعها عدد لا يُحصى من القرى المحيطة بها، وذلك باحضار السلالم لرفع المنجنيقات القاصفة إلى الأسوار وكذلك عن طريق هجومات المشاة وحفر الأنفاق، وشق الثغرات وأدوات الحصار، ولقد حاصرت الملك في أورشليم وكأنه طائر في قفص».

وهكذا فقد دفع حزقيا الجزية علامة على خضوعه، وفتحت أبواب أورشليم بأعجوبة كما يقول النص التوراتي، وذلك نظراً لأن عودة الجيش الآشوري إلى منطقة ما بين النهرين قد أصبحت أمراً مُلحاً ضرورياً وذلك لتقهقر الوضع بالنسبة لبابل، حيث حدث عند انسحاب الجيش الآشوري أن استأنف (بيروداك – بالادان) حياكة دسائسه، وقد ثبت أن بيل – ابني غير قادر على الاحتفاظ بحكومة فعالة، وقد عُزِل هذا في عام ٧٠٠ واستبدل بآشور نادين – شم وهو أحد أبناء سنحاريب الصغار.

وهكذا قام الجيش الآشوري بحملة تأديبية في الأراضي الكلدانية وهرب (بيروداك – بالادان) إلى عيلام ولم يذكر عنه شيء بعد ذلك.

ففي أول ظهور له على مسرح الأحداث قبل أكثر من ثلاثين عاماً كان هذا الرجل زعيماً محترماً لقبيلة كبيرة، وهكذا أصبح الآن في الخمسين من العمر وربما أكبر وهكذا فمن المحتمل أن يكون قد مات ميتة طبيعية.

ولكن بقي هناك بعض التجمعات المعادية لآشور في بابل وعيلام، وقد تنظمت هذه التجمعات الآن وحاولت التوسع بدعم من عيلام.

الحرب مع عيلام

لقد أظهر الكلدانيون أنهم أحد العوامل المعطلة والمُعيقة لآشور ومصالحها ومصالح مدن بابل الشمالية خلال العقود الأربعة الماضية، وبدعم ومساعدة عيلام وتقديم الملاذ من إجراءات التأديب الآشورية، لهذا فقد أصبح الكلدانيون في وضع يصعب السيطرة عليه، ولهذا فقد قرر سنحاريب معالجة المشكلة وذلك بضرب عيلام بشكل مباشر، ففي عام ٦٩٤ ق.م قام بهجوم بحري عبر الخليج العربي، وكانت هذه العملية تعد عملية ضخمة في مصطلح اللوجستية وهي فن نقل الجيوش وتزويدها بالمؤونة والسلاح، فقد كان لديه سفن بُنيت في نينوى فأبحرت إلى أسفل دجلة بقيادة بحارة فينيقيين، ونقلت الجيوش إلى البر بواسطة عجلات أوصلتهم إلى قناة تصب في نهر الفرات.

وبعد ذلك أبحر الجيش إلى الخليج، وهناك تم إنزال الجنود ونقلهم إلى شواطئ عيلام، حيث رغم المقاومة أمن الآشوريون رأس جسر ومن هناك استولوا على عدد من المدن العيلامية ونهبوها مع أنهم لم يتقدموا نحو العاصمة (سوزا).

ولقد أجابت عيلام بتكتيك أتى مفاجئاً بالنسبة لسنحاريب إذ بدلاً من الدفاع عن الجنوب قامت عيلام بغزوة عبر نهر دجلة فإلى شمال بابل، وبواسطة عامل المفاجأة هذا قطع العيلاميون المواصلات الآشورية واعتقلوا الابن الذي نصبه سنحاريب ملكاً على بابل، ونصبوا ملكاً مطيعاً لهم على بابل، ويظهر كما لو أن نظام الاستخبارات الآشوري كان أقل فاعلية بالنسبة لعيلام وقواها مما كان عليه بالنسبة لأورارتو، ولكن لم تكن قوى العيلاميين الغازية نداً للقوة الآشورية وهكذا فقد انسحب العيلاميون بعد اشتباك بسيط مع جيش سنحاريب الراجع من القتال.

ولكي يمنع إعادة حدوث تدخل العيلاميين عمد سنحاريب في عام ٦٩٣ إلى مهاجمة عيلام خلال ولاية (الدير) التي قام العيلاميون منها بغزوة ضد بابل

obeikandl.com

الشمالية، وهنا قام شخص آخر من المدعين بحقه في العرش البابلي بعصيان وطلب مساعدة العيلاميين والتحالف معهم.

وبالنتيجة فقد واجه سنحاريب حلفاً مؤلفاً من العيلاميين والكلدانيين ومؤيديهم في عام ٦٩١ ق.م على نهر دجلة في مكان ما شمال بابل، ولكن تذكر بعض التواريخ البابلية أن سنحاريب قد أُجبر على التراجع مع أنه ادّعى أنه انتصر، ويذكر هذا التاريخ البابلي أن أحد الباحثين الذي ناقش هذه القضية قد وصم قصة سنحاريب عن المعركة أنها كذب ضخم وغير عادي، وربما كان في هذا القول شيء من المبالغة، فلم يكن المشهد الذي وقعت فيه المعركة جنوبي ديالا التي اعترف بها بأنها أحد حدود آشور الجنوبية الشرقية، وأن الجيش العيلامي المتجه شمالاً قد واجه الجيش الآشوري هناك، وهذا يعني أن عيلام كانت تهدد بغزوها لآشور.

وقد كان نجاح جيش سنحاريب في تلك المعركة الدامية قد دق التحالف العيلامي في الصميم وبشدة لدرجة أنه مع أنهم كانوا يقفون على الحدود إلا أنهم لم يستطيعوا المرور، ومن وجهة نظر سنحاريب، إنه مع وجود الجيش الآشوري تحت التهديد الواضح، فإن هذه كانت معركة انتصر بها سنحاريب حقاً، ولكن وحدات جيشه قد عانت ومُنيت بخسائر فادحة بحيث ترك الجيش الآشوري في وضع لم يستطع أن يتحرك إلى بابل بشكل فعَّال، وقد كانت ضرورة الرجوع إلى القاعدة من وجهة نظر البابليين معناها التقهقر أو الانسحاب.

ب بابل

الحقيقة أن الجيش الآشوري لم يواجه أي نكسة فعلية نظراً لأنه وبحلول عام (٦٩٠) كان هذا الجيش قد رجع إلى بابل التي كانت في حالةٍ يرثى لها، وهنالك وثيقة رسمية نشرت بشكل ترجمة فحسب وهي تقول:

(ساد في البلاد عدا الحصار المجاعة والجوع والحاجة وكان ثمن اثنين (كا) من الشعير بشيكل واحد من الفضة (حوالي جنيه استرليني واحد) وهو ثمن **Pint**

obeikandl.com

باينت[1] حسب الأسعار الحديثة، وقد كانت بوابات المدينة مغلقة ولم يستطع أي شخص الخروج وقد ملأت جثث الرجال التي لم تجد أحداً يدفنها ساحات بابل.

وبعد خمسة عشر شهراً سقطت بابل على يد جيش سنحاريب وقد هرب الملك البابلي الذي كان محتفظاً بالعرش من بابل ولكن ألقي عليه القبض بسرعة وقتل.

وقد أعطى سنحاريب للقاتل ما قيمته وزن المغتصب المقتول من الفضة.

وبالنسبة لبابل نفسها فإن موقف سنحاريب بالنسبة لتلك المدينة المقدسة دينياً وثقافياً قد تغير في مدة عقد ونصف، وتخلّص من المعارضة.

وكذلك فإن فقدان سنحاريب لولده –كل هذا- هزَّ المدينة بعنف فقد أعطى سنحاريب الإذن لجنوده بالنهب والسلب فقد نهبوا المعابد وحملوا معهم التماثيل الإلهية ودمَّروا البيوت والمعابد وأسوار المدينة، وحفروا الأقنية حولها بقصد تهديمها حتى الأساسات.

وبالنسبة لبقية حياة سنحاريب وهي مدة ثماني سنوات أخرى لم يكن هناك من ملك رسمي لبابل مع أنه وبحكم الواقع كان سنحاريب هو الملك وهكذا سُجل في قائمة ملوك بابل.

إن نهب سنحاريب لبابل كان مفهوماً ولكن لم يكن فكرة حسنة، إذ إن لدينا بعض الدلائل التي تشير إلى وجود فئات مناصرة لآشور وفئات مضادة لها في بابل، في الوقت الذي كان لدى آشور جماعات يعترفون بالثقافة البابلية باحترام، فضلاً عن وجود من يرغب في رؤيتها مهدمة ومدمرة.

ولهذا، فإن خطوة سنحاريب قد أدت إلى استقطاب تلك المشاعر داخل آشور، وكان هناك عصابات حتى ضمن العائلة المالكة الآشورية.

---

[1] **الباينت Pint مقياس للسوائل يساوي ١على ٨ غالون، والغالون =٤،٥ لينر (المترجم).**

obeikandl.com

وقد مات سنحاريب في بابل عام (٦٨١) مقتولاً حسب أقوال التوراة على يد اثنين من أبنائه، وأحدهما يدعى: أراد-موليس الذي يتحول اسمه في النص التوراتي إلى أدراملك.

obeikandl.com